البحث عن اليقين لجون ديوى

بقلم
الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

١ — سيرته

فيلسوف أمريكا بلا منازع ، والناطق بلسان مذهبها الفكرى فى النصف الأول من القرن العشرين ، والمعبر عن اتجاهاتها العقلية فى الاجتماع والنفس والتربية والأخلاق والسياسة والفن والفلسفة . فلما توفى سنة ١٩٥٣ لم تجد مَنْ يحل محله ، ويشغل مكانه ، ولم يظهر بعده الفيلسوف البارز الذى يمكن أن يُقال إنه الناطق اليوم بلسان الفلسفة الأمريكية .

ولا يعد ديوى فيلسوف أمريكا وحدها ، فقد ارتفع إلى مصاف المفكرين العالميين الذين يعتبر تراثهم ملكاً للإنسانية كلها ، وسجل اسمه فى تاريخ الفكر إلى جانب بيكون وديكارت وليبنتز ولوك وهيوم وبرجسون وغيرهم من كبار الفلاسفة .

ولد فى العشرين من أكتوبر سنة ١٨٥٩ فى ڤرمونت إحدى الولايات الأمريكية ، ويتفق مولده مع ميلاد فيلسوفين آخرين أولهما هوسرل صاحب المذهب الظاهرى (١٨٥٩ — ١٩٣٨) ، والثانى برجسون صاحب المذهب الحيوى (١٨٥٩ — ١٩٤١) . أما فيلسوفنا فصاحب المذهب التجريبى أو مذهب الخبرة ، كما سنبين ذلك فيما بعد . ومن الموافقات العجيبة أيضاً أن يقع مولده فى نفس العام الذى نشر فيه داروين كتابه « أصل الأنواع » وهو الكتاب الذى لعب فى حياة ديوى أعظم الأثر ، فقد ساير نظرية التطور العلمى ، وآمن بها ، وطبقها على ميادين النشاط الإنسانى كعلم النفس والاجتماع .

أتم ديوى تعليمه الابتدائى والثانوى ، والتحق بجامعة ڤرمونت فدرس اللغتين اليونانية واللاتينية والتاريخ القديم ، والهندسة التحليلية ، وحساب التفاضل والتكامل ، والعلوم الطبيعية والنبات والحيوان ، مع الاهتمام بنظرية التطور التى كانت حديثة العهد وحديث الساعة . وفى آخر سنوات الدراسة تلقى محاضرات فى علم النفس وتاريخ الحضارة . وقد تأثر فى الفلسفة بجمهورية أفلاطون ، وفلسفة أوجست كومت الوضعية ، والمثالية الألمانية وبخاصة فلسفة هيجل التى ظل متبعاً لها حتى عدل مذهبه وتخلص منها ، كما بين فى سيرته التى كتبها بعنوان « من المذهب المطلق إلى المذهب التجريبى » ومع ذلك فقد اعترف بأن مثالية هيجل قد تركت فى تفكيره رواسب دائمة ، لم يستطع أن يتخلص منها حتى بعد اتجاهه نحو المذهب التجريبى

وقد كانت رسالته فى الدكتوراه عن « علم النفس عند كانط » نال بها الإجازة سنة ١٨٨٤ ، ولكنه لم ينشر هذه الرسالة قط ، بل حتى لاتوجد منها نسخة فى مكتبة الجامعة . ثم عين فى نفس العام مدرساً للفلسفة بجامعة متشجان . وفى هذه المدينة تزوج « أليس تشابمان » التى كانت تعمل مدرسة ، فأثرت فى زوجها ، ودفعته إلى هجر الفلسفة القديمة والاهتمام بمشكلات الحياة المعاصرة ، ووجهته نحو التربية التى أصبح فيما بعد فيلسوفها المبرز . وقد أعقب منها ستة أولاد بين ذكور وإناث .

وفى متشجان اتصل ديوى بالأستاذ تافتس Tufts فتعاونا على التفكير والتأليف ، وبلغت بهما الصداقة حداً جعل « تافتس » حين نقل إلى شيكاغو يطلب ديوى للاشتغال معه فقبل ، وكان ذلك سنة ١٨٩٤ ، وقد أثمر تعاونهما تأليف كتاب «الأخلاق». ومن الأسباب التى جعلته يقبل الانتقال إلى جامعة شيكاغو انضمام قسم التربية إلى قسم الفلسفة وعلم النفس ، ذلك أن التربية كانت تشغل تفكيره ، وقد فطن إلى أهميتها نظرياً وعملياً فى الرقى بالإنسان .

أنشأ ديوى فى شيكاغو مدرسة خاصة سماها « المدرسة المعملية » واشتهرت باسم « مدرسة ديوى » ، كانت بالإضافة إلى تدريس الفلسفة وعلم النفس أشبه بمعمل من معامل الطبيعة والكيمياء . ولم يكن غرضه أن تكون مدرسة « تجريبية » أو « تقدمية » كالحال فى المدارس الحديثة الجارية فى الوقت الحاضر . وبهذه المناسبة ألقى عدة محاضرات عن صلة التربية بالمجتمع جمعها فى كتاب سماه « المدرسة والمجتمع » طبع أكثر من مرة .

وإلى جانب اهتمامه بالتربية فى أثناء تدريسه بشيكاغو اتجه نحو نوعين من الدراسة : الأول الأخلاق التى حاضر فيها ثلاث سنوات عن منطق الأخلاق ، والأخلاق الاجتماعية ، والأخلاق النفسانية ، فكانت هذه المحاضرات أساس كتابه المشهور « الطبيعة البشرية والسلوك » . والنوع الثانى من الدراسة هو المنطق فأصدر فيه كتاباً بعنوان «دراسات فى النظرية المنطقية» سنة ١٩٠٣ ، وقد رحب وليم جيمس بهذا الكتاب فأعلن عن مولد مدرسة شيكاغو صاحبة الاتجاه البرجماتى ، الذى يمتاز بالنزعة الأداتية instrumental ، وبهذه النزعة اشتهر ديوى ، وأصبحت عنواناً على مذهبه .

لم يلبث ديوى أن اختلف مع مدير جامعة شيكاغو حول «المدرسة المعملية» فاستقال سنة ١٩٠٤ ؛ وانتقل إلى جامعة كولومبيا إلى جانب التدريس بكلية المعلمين ، واستمر بها إلى أن أحيل إلى الاستيداع سنة ١٩٣١ .

تعد إقامته فى كولومبيا أخصب فترات حياته إذ تبلور فيها مذهبه ، فعدل عن المثالية والمذهب المطلق إلى التجريبية ، واتجه نحو مذهب واحدى لا مذهب كثرة كذلك الذى كان يمثله وليم جيمس . ويتبين هذا الاتجاه من كتابيه فى الفلسفة ، الأول « تجديد فى الفلسفة » والثانى « البحث عن اليقين » . وتخرج على يديه فى كولومبيا كثير من التلاميذ الذين أشاعوا مذهبه من أمثال راندال ، إيدمان ، كلباتريك ، تشايلدز ، هوك ، وغيرهم ، وكتبوا فى التربية والاجتماع والسياسة والفن والأخلاق . وبذلك يعد ديوى صاحب مدرسة بمعنى الكلمة ويدور مذهبه فى هذه النواحى الإنسانية من النشاط على فكرة الديمقراطية التى يجب أن تسود التربية والسياسة والمجتمع . وقد دافع عن الديمقراطية فى عصر أوشكت سيطرة رأس المال أن تعصف بحرية الفرد فيه ، واصطدمت الحريات السياسية والاجتماعية بسلطان أصحاب المال والشركات الكبرى ، ولذلك رأى أن الديمقراطية ليست مفهوماً مجرداً بمقدار ما تكون متأصلة فى الفرد نتيجة التربية .

وقد أفاد ديوى من رحلاته إلى الخارج ، فاطلع على ألوان من الثقافات والحضارات والشعوب ، كما استفادت منه البلاد التى ذهب إليها محاضراً . ذلك أنه دعى لإلقاء محاضرات فى جامعة طوكيو عقب الحرب العالمية الأولى مباشرة ، ويعد كتابه« تجديد فى الفلسفة » ثمرة هذه المحاضرات . كما دعى إلى الصين كذلك وبث فيها فكرة الأخذ بالتربية الحديثة باعتبار أنها أساس ثورتها التحريرية فى السياسة والاجتماع . وزار تركيا سنة ١٩٢٤ ، والمكسيك سنة ١٩٢٦ ، فتضاعف إيمانه بالتربية وسيلةً فعالةً لإحداث التغيرات الاجتماعية الثورية . وزار روسيا السوفيتية سنة ١٩٢٨ ، واطلع على ثورتها الجديدة ، وعطف عليها ، وكتب عنها يدافع عن حركتها الإصلاحية . وانغمس بعد ذلك فى مغامراتها السياسية واستدعى للفصل فى النزاع بين ستالين الذى كان يدعو إلى عبادة الفرد وبين تروتسكى الذى كان يفسر المذهب الشيوعى على أساس دولى شعبى . وقد عارض ديوى الستالينية والتروتسكية على السواء لأنهما ضد الديمقراطية التى يؤمن بها .

امتد به العمر حتى بلغ الثالثة والتسعين ، دون أن ينقطع عن الكتابة والتأليف ، وتوفى فى أول يونية ١٩٥٢.

٢ — مؤلفاته

لم يظفر فيلسوف — فيما نعتقد — بترجمة مؤلفاته إلى العربية كما ظفر جون ديوى . فقد ترجمت له الكتب الآتية (١) الديمقراطية والتربية (٢) تجديد فى الفلسفة (٣) البحث عن اليقين (٤) عقيدتى الفلسفية (٥) عقيدتى التربوية (٦) الخبرة والتربية (٧) المنطق أو نظرية البحث (٨) الحرية والثقافة (٩) آراء توماس جيفرسون .

وله كتب أخرى فى طريقها إلى الترجمة والنشر باللغة العربية ، وبذلك تكمل معرفة ديوى لدى الناطقين بالضاد ، باعتبار أنه فيلسوف عالمى صاحب مذهب كبير ، وباعتبار أنه ممثل الفلسفة الأمريكية .

سنصنف كتبه تبعاً للموضوعات الرئيسية التى طرقها ، ولن نذكر مقالاته المتعددة المنشورة فى مختلف المجلات الفلسفية مع ذكر السنة التى صدرت فيها الطبعة الأولى لكل كتاب .

ا — مؤلفات تربوية : عقيدتى التربوية (١٨٩٧) المدرسة والمجتمع (١٩٠٠) — الطفل والمنهج الدراسى (١٩٠٢) — مدارس الغد (١٩١٥) — الديمقراطية والتربية (١٩١٦) — الخبرة والتربية (١٩٣٨) — التربية فى العصر الحاضر (١٩٤٠) — فلسفة التربية (١٩٤٦)

ب — مؤلفات نفسية : علم النفس (١٨٨٧) — علم النفس والمنهج الفلسفى (١٨٩٩) — كيف نفكر (١٩١٠) الطبيعة البشرية والسلوك (١٩٢٢)

جـ — مؤلفات أخلاقية : الأخلاق (١٩٠٨) — الطبيعة البشرية والسلوك (١٩٢٢)

د — منطقية — : دراسات فى النظرية المنطقية (١٩٠٣) — مقالات فى المنطق التجريبى (١٩١٦) المنطق أو نظرية البحث (١٩٣٨) .

هـ — سياسية : الفلسفة الألمانية والسياسة (١٩١٥)— الفردية قديماً وحديثاً (١٩٣٠) — قضية تروتسكى (١٩٣٧) .

و — دينية : إيمان مشترك (١٩٣٤) .

ز — فنية : الفن والتربية (١٩٢٩) — الفن كخبرة (١٩٣٤)

ح — اجتماعية وحضارية : الطبيعة البشرية والسلوك (١٩٢٢) — الجمهور ومشكلاته (١٩٢٧) شخصيات وحوادث (١٩٢٩) — الفلسفة والحضارة (١٩٣١) — التحرير والحركة الاجتماعية (١٩٣٥) — الحرية والثقافة (١٩٣٩) .

ط — فلسفية : أثر دارون فى الفلسفة (١٩١٠) تجديد فى الفلسفة (١٩٢٠) — الخبرة والطبيعة (١٩٢٥) البحث عن اليقين (١٩٢٩) — نظرية القيمة (١٩٣٩) المعرفة والمعروف ١٩٤٩ .

٣ — مذهبه

المؤلفات المذكورة آنفاً شيء يسير بالإضافة إلى التراث الضخم الذى خلفه ديوى ، اكتفينا بالإشارة إلى أهمها . ويمكن اختزال هذه المؤلفات مرة أخرى والوقوف عند الرئيسية منها التى تعد تراثاً خالداً حقاً . وهذه هى : (١) الديموقراطية والتربية (٢) تجديد فى الفلسفة (٣) الطبيعة البشرية والسلوك (٤) المنطق أو نظرية البحث (٥) الخبرة والطبيعة — الخبرة والتربية — الفن كخبرة (٦) نظرية القيمة (٧) البحث عن اليقين .

سنعرض مذهبه من خلال هذه المؤلفات الرئيسية وسنقف وقفة طويلة لتحليل كتابه الذى ذكرناه فى آخر هذه القائمة وهو « البحث عن اليقين » الذى نعده فى نظرنا أعظم كتبه ، وقد قام كاتب هذه المقالة بترجمته إلى العربية . وسنكتفى فى عرض مذهبه بالوقوف عند منهجه أو منطقه ، وفى تحليل « البحث عن اليقين » غنية عن الإفاضة فى مذهبه فى صفحات مستقلة .

الفلسفة ظاهرة من ظواهر الثقافة الإنسانية ، غير منفصلة منها ولا منعزلة عنها ، وصلتها بالتاريخ الاجتماعى وبالحضارة صلة ذاتية ملازمة لها ، ولقد كانت فلسفة الفلاسفة ولا تزال مرآة تعكس ظروف الحياة فى العصر الذى كان يعيش فيه صاحب ذلك المذهب والبيئة التى نشأ فيها . غير أن الفيلسوف كما أنه يصور أحوال زمانه وحضارة أيامه ، فإنه كذلك يضرب ببصره إلى الأمام فيحاول أن يرسم الطريق إلى المستقبل ، وأن يخلق صورة جديدة للمجتمع كما يريد أن يكون عليه . هذه العملية الجديدة تمثل الصراع بين القديم والجديد ، ومن هنا يُعدُّ كل فيلسوف ثائراً على زمانه ، غريباً عن أقرانه . كذلك كان سقراط ، وكذلك كان بيكون وديكارت . ولكن قدماء الفلاسفة بغير استثناء — فى نظر ديوى — كانوا يقيمون دعائم مذاهبهم على نظام فكرى خالص يخيل إليهم أنه ثابت كالطود لا يتغير ولا يعتريه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذا فيما يراه ديوى وَهْمٌ ، لأن الثبات ليس من طبيعة الحياة المتغيرة على الدوام ، كما أن الانفصال بين عالم أعلى للفكر يعد أسمى من عالم العمل انفصال غير صحيح لأنَّ تيار « الخبرة » الإنسانية لا يعرف انفصالا بين فكر وعمل ، ولا بين نظر وسلوك ، وإنما هو تيار واحد متجدد سائر إلى الأمام يشترك فيه النظر والعمل على السواء .

ومن هنا جاء أن ديوى يسمى فيلسوف « الخبرة » أو « التجربة » ، وكان مذهبه هو التجريبية ، لا بمعنى التجريب العلمى المعروف ، بل بمعنى الخبرة الإنسانية التى سنتحدث عنها فيما بعد ، والتى يعد التجريب العلمى جزءاً منها ، كما يعد جزءاً من منطق ديوى الذى يسميه باصطلاح خاص هو « البحث » .

ولما كان منطق الفيلسوف هو المحور الذى يدور عليه مذهبه ، فيمكن أن نتصور مذهب ديوى بثلاث دوائر يحيط بعضها ببعض ، فالدائرة الداخلية هى « البحث » ، لأنها محور الارتكاز ، وتحيط بها دائرة الخبرة الإنسانية من علم وصناعة وفن وأدب وأخلاق وسياسة ودين ، ثم تحيط بهذه الدائرة دائرة أشمل هى المجتمع العالمى بما فيه من نظم من جهة صورتها الظاهرة والتى تكوِّن ما يمكن أن يسمى بالمسائل الاجتماعية ، أو الحضارة بأوسع معانيها . فلا عجب أن يقول

ديوى فى مقالته عن الفلسفة والحضارة : « إنه ليس ثمة فرق نوعى بين فلسفة وبين دورها فى تاريخ الحضارة . فأنت إذا كشفت عن الخاصة الصحيحة والوظيفة الوحيدة فى الحضارة وعرفتهما فقد عرّفت الفلسفة نفسها » . فالفلسفة هى الصلة بين هذه الميادين الثلاثة ، المنطق ، والخبرة الإنسانية ، والحضـــارة البشرية .

ا ــ منطق البحث : عنى ديوى بالمنطق منذ شبابه ، وغاص فى أعماقه ، ووجه إليه سهام نقده ، وخرج بمنطق جديد يمثل فى الواقع وجهة النظر البرجماتية . منذ أرسطو ــ صاحب المنطق ــ نظر الفلاسفة إلى هذا العلم على أنه يبحث فى التصورات والتصديقات ، أى فى المعانى والطريق الموصل إليها وهو التعريف ، والاستدلال من قياس واستقراء ، وكان القياس الأرسطى هو العمدة لأنه مرتب فى هيئة معينة تؤدى إلى النتيجة بالضرورة . فالمنطق هو اتساق الفكر مع نفسه ومع قوانينه الصورية ، المستقلة عن عالم الواقع . ولكن ديوى لا يؤمن بهذا الانفصال بين عالم فكرى وعالم واقعى ، بين النظر والعمل ، بل الكل عملية واحدة ، يتدخل العقل فيها ليصل إلى حكم معين ونتائج معينة . والأساس عنده هو الواقع ، هو الحياة العملية ، أو باصطلاحه الأخير هو «الموقف» . فليس ثمة تفكير ، ومحاولة للكشف عن نتائج جديدة ، إلا إذا واجه الإنسان « موقفاً » جديداً يبعث فى نفسه الحيرة ، ولا يجرى فيه طبقاً لمألوف . وفى هذا الموقف الذى يستوى أن يكون بسيطاً أو معقداً ، شخصياً أو عاماً ، توجد أمور كثيرة تصبح موضوعات للفكر كالأحداث ، والأفعال ، والقيم ، والمثل العليـــا ، والأمكنة ، والأشخاص وغير ذلك . والقضايا التى نكونها ليست صحيحة أو باطلة على الإطلاق كما يذهب المنطق القديم الأرسطى أو الرياضى ، مثل قولنا « الماء سائل » أو « النار محرقة » ، فليس الماء سائلا على الإطلاق بل فى ظروف معينة وفى مواقف خاصة . فالمواقف تزخر بالأشياء والأحداث وتكون سياقاً متصلا ، هو الذى يسمى الموقف . وحين نحكم على أشياء فى هذا الموقف فإنما ذلك لتوجيه السلوك فى نهاية المطاف .

وفى كل بحث يمر التفكير فى عدة مراحل هى مواجهة المشكلة ، ثم تحديدها ، ثم فرض الفروض ، ثم تحقيقها . فالطبيب حين يعالج مريضاً يواجه مشكلة هى المرض الذى يشكو منه المريض ، وينتقل الطبيب بعـــد ذلك إلى تحديد المشكلة بسؤال المريض عن أعراضه ويفحص أجزاء جسمه ، ثم يضع « فرضاً » يعتبر أنه علة المرض ، ويحاول أن يطبق هذا الفرض فإذا أثبتت النتـــائج صحته كان الفرض صحيحاً ، وإلا عدل عنه إلى فرض آخر . وهكذا .

الخلاصة أن الإنسان يعيش فى بيئة يواجه فيها مواقف جديدة تحتاج إلى تصرف بشكل جديد وإلى سلوك يتغلب فيه على ما يعرض له من مشـــاكل ، ولأجل ذلك يستخدم الإنسان تفكيره فى التعرف على الأشياء الموجودة فى البيئة ، والمعانى التى توحيها تلك الأشياء وتدل عليها ، كما يستخدم ذكاءه فى الوصـــول إلى ما ينبغى من حلول . وما تفكيره ، ومعرفته ، وألفاظه ، ومعانيه ، وأحكامه ، وتقديره ، واستدلاله سوى « أدوات » يستخدمها فى التغلب على البيئة وإخضاعها لسيطرته ، وتعديلها بما يلائم أغراضه ومصالحه . ومن هنـــا كان المنهج الديوى يسمى « الأداتية » (أو المذهب الوسلى) .

وقد تطور ديوى بمنطقه فسماه مذهب العمليات أو الإجراءات operationalism ، ذلك أن الأداتية تدل على العلاقة بين الوسائل والنتائج ، واتخـــاذ الألفاظ والمعانى والتفكير والذكاء أدوات للحصول على النتائج المطلوبة . أما العملياتية فإنها تدل على

الشروط التى يكون فيهـا موضوع التفكير صالحاً لاستخدامه وسيلةً سواء أكانت تلك الوسيلة متصورة أم قائمة بالفعل لتعديل النتائج وهو الغاية من البحث . على الجملة المنطق الجديد أو منطق البحث هو اتباع طرائق وإجراءات من شأنها الاستفادة من البيئة وتسخيرها لخدمة الإنسان وأغراضه .

ب ـ الخبرة : تمتاز فلسفة ديوى بأنها تطبيق أو محاولة لتطبيق المنهج العلمى على الاجتماع والسياسة والأخلاق ، وهى الميادين الإنسانية التى لم يتعرض لها السابقون ، وبخاصة وليم جيمس الذى بدأ فى تطبيق هذا المنهج على علم النفس . على الجملة فلسفة ديوى تطبيق للمنهج العلمى على الأمور الإنسانية التى تمتاز « بالخبرة » ، أى معاناة الفرد لها ، فى مقابل الأمور الطبيعية المستقلة عن الخبرة الإنسانية . فالطفل الصغير حين يلمس النار بأصبعه يتألم ، ويدرك أن النار محرقة يتعلم من ذلك أن يتجنبها حتى لا تحرقه ، فالقول بأن النار محرقة جزء من الخبرة ليس منفصلا عنها . والخبرة تقوم على فعل وانفعال ، وتأثير وتأثر ، وفهم لما يقع حول المرء ، والاستفادة من ذلك كله فى المستقبل أى البصر بالعواقب . فالخبرة إذن عملية حية ، نامية ، متطورة ، تنمو مع نمو الفرد واطراد تعلمه من الحياة . وهناك خبرة ساذجة ، وخبرة علمية ، وهذه الأخيرة تقوم على الفهم والإدراك ، ومعرفة العلاقات بين الأشياء ، مما يفيد حقاً فى تكييف الفرد لنفسه فى البيئة التى يعيش فيها والسيطرة عليها فى المستقبل . إنها الخبرة التى تقوم على التوجيه لا على مجرد القبول

وللخبرة جانبان أحدهما مباشر من حيث ملاءمتها للشخص أو عدم ملاءمتها له واستمتاعه بها أو عدم استمتاعه ، وجانب غير مباشر يرمى إلى التأثير فيما يأتى من خبرات . والجانب الثانى هو الأهم فلسفياً لأنه يسمح بمتابعة النمو . ومن هنا نادى ديوى بمبدأين أساسيين فى الخبرة هما التواصل والتفاعل . فالتواصل استمرار الخبرة ، سواء عند الفرد أم الجماعة ، فى اتجاه أرقى ونحو غاية بعيدة وهدف مقصود ، كالتاجر الذى يضع نصب عينيه كسب المال ، فيدرس الظروف الخارجية التى تؤثر فى تجارته حتى يستفيد منها فى بلوغ غرضه . فالخبرة ثمرة التفاعل بين الظروف الخارجية والنزعات الداخلية ، ومن هذا التفاعل يحدث ما يسمى « بالموقف » وجوهره العمل على تعديل الظروف الخارجية بما يلائم حاجات الفرد وأهدافه .

والخبرة الحقيقية تستلزم ضرباً من التنسيق والتنظيم بين الظروف الخارجية والنزعات الداخلية . وهذا هو الفرق بين الخبرة الحيوانية والخبرة الإنسانية والفرق بين خبرة الإنسان فى مرحلته غير العلمية وخبرته الموجهة بالعلم والذكاء .

* * *

٢ ـ البحث عن اليقين

رأينا أن مؤلفات ديوى كثيرة وكلها فى مرتبة عالية ، ولو سئل هو نفسه عن أفضل كتبه لقال إنه « الديموقراطية والتربية » كما سجل ذلك فى سيرته . وقد يذهب البعض إلى أن « تجديد الفلسفة » أفضل كتاب له ، أو يذهب البعض الآخر أنه « الطبيعة البشرية والسلوك » ، أو يرى المناطقة أن كتاب « المنطق أو نظرية البحث » أحسنها ، أو المشتغلون بالفن أن « الفن كتجربة » أعلاها ، وهكذا . وهذه كلها أحكام تقويمية تعبر عن الميل والمزاج والاستحسان الشخصى والذوق الخاص .

أما أنا فإلى جانب هذا المقياس الشخصى ، سأضع معياراً آخر هو أثر الكتاب فى الفكر المعاصر ، وفى التيار الفلسفى بوجه خاص ، وقيمة الكتاب من

حيث خلوده فى المستقبل من الزمان . وفى تصورى أن كتاب « البحث عن اليقين» الذى ألقاه محاضرات سنة ١٩٢٩ ، هو هذا الكتاب ، وقد نقلته إلى اللغة العربية سنة ١٩٥٨ .

يقع الكتاب فى أحد عشر فصلا ، هى الهرب من الخطر ، وبحث الفلسفة عن اللا متغير ، والصراع بين السلطات ، وفن القبول وفن التوجيه ، والأفكار فى مجال العمل ، ولعب الأفكار ، وقاعدة السلطة الفكرية ، وتطبيع الذكاء ، وسلطان المنهج ، وبناء الخبر ، والثورة الكوبرنيقية .

ليس فى هذه الفصول جديد لم نذكره من قبل عند عرض مذهبه ، كل ما فى الأمر أنه وضح بعض الأفكار التى ينادى بها ، وجمع أطراف الفلسفة فى كتاب واحد ، وتعد الفصول الثلاثة الأخيرة ، وهى سلطان المنهج ، وبناء الخبر ، والثورة الكوبرنيقية أروع فصول الكتاب وأهمها وأخلدها . ففى الكلام عن المنهج توضيح لمنطقه وبيان للمنهج العلمى ، وفى الفصل العاشر ، وهو بناء الخبر ، عرض موجز عميق لفلسفة الأخلاق والقيم ، وفى الثورة الكوبرنيقية ينادى بثورة جديدة ديوية .

الفصل الأول تمهيد أو مقدمة للفلسفة عامة ، وللمشكلات الفلسفية والسر فى ظهورها على مر الزمان

ونحن نعلم أن أرسطو بدأ كتابه فى الميتافيزيقا بقوله : إن الإنسان كائن مستطلع ، وإن حب المعرفة يولد فى المرء لذة طبيعية هى التى تسوقه إلى طلبها . وبدأ ديوى فى كتابه « تجديد الفلسفة » بأن أصل الفلسفة فى الرغبة وفى التخيل ، لأن الإنسان يمتاز عن الحيوان بالاحتفاظ بذكرياته الماضية وخبرته السابقة ، وأنه يتخذ من هذه الذكريات رموزاً لحياته المقبلة ، كالنار ليست مجرد شىء يحرق ويؤذى من يتعرض له ، بل رمز لمحراب العبادة ، وبذلك يصبح للحياة معنى وتصبح مأساة حقيقية .

وفى كتابه « البحث عن اليقين » يذهب إلى أن الإنسان محفوف أبداً بالمخاطر ، وهو لذلك يلتمس الأمن بطريقين ، طريق علمى هو محاولة فهم أسرار الطبيعة وابتكار الأدوات والفنون التى يحمى بها نفسه ويسيطر بها على البيئة الطبيعية من بناء مساكن ، ونسج لباس ، واتخاذ أسلحة يهاجم بها الحيوانات وغير ذلك . والطريق الآخر خيالى وهمى ، يحاول به أن يسترضى القوى التى تحدد مصيره بتقديم التضحية لها ، وعبادتها ، وممارسة الطقوس الدينية والسحرية ، سواء بحركات ظاهرة ، أم بسريرته الباطنة من تقوى وإخلاص .

ولكن الناس رفعوا من قيمة الروحانيات على الماديات التى حطوا من شأنها وأنزلوها منزلة أقل من المعقولات النظرية والروحانيات المجردة .

ارتمى الناس فى أحضان الروحانيات وظنوا أنها توصلهم إلى « اليقين » ، وابتعدوا عن العمل والصنع والفنون اليدوية المتغيرة لأنها لا تبلغ مرتبة اليقين ، ولا يمكن أن تبلغه ، ورتب الفلاسفة على هذا الفصل نظرياتهم فى الوجود والمعرفة والقيم على السواء . هناك وجود ثابت يقينى من وراء هذا الوجود المتغير ، والمعرفة المطابقة لهذا الوجود هى أصدق معرفة ، والقيم الأخلاقية سامية خالدة ينبغى على الإنسان أن يرتفع إلى مستواها ، وقل أن يستطيع امرؤ أن يبلغها ما دام مرتبطاً بهذه الحياة وبهذا الكون . وهكذا ضلت جميع الفلسفات القديمة بسبب هذا الفصل بين الروحانى والمادى ، بين النفس والبدن ، بين المثالى والواقعى ، وليس ثمة من حل لهذه المشكلة سوى إلغاء هذا التميز ، واتخاذ « الخبرة » أساساً لكل بحث إنسانى سواء كان علمياً طبيعياً أو أخلاقياً إنسانياً .

ولا شك أن هذه الوجهة من النظر تعد ثورة فى عالم الفلسفة . وكل فيلسوف كبير أحدث فى الفلسفة

ثورة ، فهذا سقراط ثار على السوفسطائيين وعلى مبدأ النسبية والتغير وأرسى قواعد الخير الثابت ، وأنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، أى حولها من البحث فى الأمور الطبيعية إلى الأمور الإنسانية . وسار على منواله أفلاطون ثم أرسطو وسائر الفلسفات القديمة وفى العصر الوسيط ، حتى جاء « كانط » فأحدث ثورة أخرى كبيرة شبهها بالثورة الكوبرنيقية فى علم الفلك ، يريد بذلك أنه بدلا من أن تكون الأرض هى المحور الذى يدور العالم حوله ، أصبحت الشمس هى المحور والأرض تدور حولها . كذلك بعد أن كانت الأشياء الخارجية هى المحور الذى يدور الفكر حوله محاولا معرفته ، أصبح العقل عند كانط هو المحور الذى تدور حوله الأشياء الخارجية ، لأن العقل البشرى فى نظر كانط مزود بمقولات أولية تطبع المعرفة بطابعها .

انتقد ديوى هذه النظرية الكانطية ، وبيّن أنها ليست فى الحقيقة ثورة ، لأن المعرفة التى كانت فى الفلسفة القديمة متعالية فى عالم منفصل أسمى من عالمنا ، أصبحت عند كانط متعالية أيضاً لأنها انتقلت إلى عرش العقل الموجود فى الإنسان ، وتستمد وجودها منه بالفطرة ، وهى أولية سابقة على التجربة . ولكن عند ديوى ليست المعرفة أولية ، ولا سابقة على التجربة ، بل نابعة من التجربة نفسها ، ومن الخبرة ، وثمرة لها .

وكان اليقين فى المذاهب التقليدية منذ الفلسفة اليونانية حتى كانط بل إلى ما بعد كانط ، مستنداً إلى الحقائق الثابتة الأزلية لأنها موجودة فى عالم أعلى ، وغاية أمل الفيلسوف أن يجتهد ليتطابق معها ، وعندئذ تتم المعرفة ، ويظفر باليقين والاطمئنان العقلى .

والواقع يدلنا على خلاف ذلك ، لأن الحياة طبيعية كانت أم إنسانية فى جريان متصل وتغير مستمر ، وعلينا أن نتطابق مع هذا العالم المتغير ، وأن نلتمس منه المعرفة واليقين ، وإذا لم يكن اليقين ميسوراً فى عالم متغير ، فما علينا إلا أن نقنع بالرجحان .

وهذه هى الثورة الديوية التى تطالب بأن نجعل معيار الحكم فى النتائج والثمرات لا فى الأشياء السابقة ، وأن نسعى إلى بناء عالم مستقبل بالقصد والتوجيه بدلا من الاعتماد على الماضى الثابت . والجديد فى هذه الثورة هو « التفاعل » المستمر فى مجرى الطبيعة بين ذهن الإنسان وبين الأشياء الطبيعية ، أى فى مجرى « الخبرة » . وبدلا من أن يسمى الأداة الإنسانية الموجهة لتيار الخبرة المتصل « العقل » طالب بتسميته « الذكاء » ليدل بذلك على المشاركة الفعّالة فى توجيه العالم . ولما كانت الفلسفة خلاف العلم وخلاف الفن ، فلها مهمة خاصة بها هى الطبيعة البشرية من جهة أخلاقيتها وسلوكها الاجتماعى . فالمادة التى يشتغل عليها الفيلسوف ويصوغ منها أفكاره هى البشر أطفالا وشباباً وشيوخاً ، يأخذ بيد الطفل بالتربية ، ويسمو بالفرد بالمعرفة ، ويتطور بالمجتمع بالعلم .

وما يسميه ديوى فن القبول وفن التوجيه تابع لنظريات الفلاسفة التقليدية فى الوجود والمعرفة ، لأن الوجود الثابت والمعرفة المطابقة لهذا الوجود ، إنما تعطينا قبول ما هو قائم ، وليس الحال كذلك فى فلسفة الخبرة الديوية ، لأن الأمر ليس مجرد استقبال بل هو توجيه للأحداث من جهة ما للإنسان من دور فعّال فى الحياة . ولقد كان العلم من عهد قريب يقف عند مرحلة الوصف والتسجيل ، أى عند فن القبول ، ولكنه اليوم انتقل إلى دور آخر هو التركيب وتغيير الطبيعة وتوجيهها . مثال ذلك الذرة عرف العلماء سرها ، وهذه مرحلة الوصف والتحليل ، ثم ركبوها فتمت بذلك المرحلة العلمية . ومن هنا كانت روح المنهج التجريبى العلمى قائمة على ثلاث خصائص هى العلانية لا السرية ، ثم توجيه البحث

لحل المشكلة المعروضة على بساط البحث ، وأخيراً تكوين مواقف جديدة تختلف فيها علاقة الأشياء بعضها ببعضها الآخر .

وليست المعرفة مطابقة بين ذات عارفة وبين موضوع معروف هو الحق الثابت ، بل المعرفة هى المنهج التجريبى نفسه تجرى معه وتتطور كلما تطور ، وينشأ المعروف من الخطوات التجريبية وهى :

١ — إعادة الكيفية المشاهدة بالحواس ، وهذه تحدث من تفاعلنا مع البيئة وتكوّن معرفة غير يقينية .

٢ — التميز بين المعطيات الحسية وبين الأفكار التى نسوقها لتأويلها .

٣ — هذه الأفكار أو الفروض ليست ثابتة نهائية بل عرضة للمراجعة وافتراض فروض جديدة .

٤ — المطابقة بين هذه الفروض وبين المعطيات بغية تحسين الفروض وتحقيقها .

ففى كل مرحلة يتخذ العالم الباحث الأفكار أداة لتوجيه ملاحظات ونظريات ونتائج جديدة . وهذا المنهج كما يطبق على العلوم الطبيعية يمكن كذلك أن يطبق على الإنسانيات مثل الأخلاق والدين والاجتماع ، التى تمتاز بالقيم .

هناك فرق بين حكم الواقع وحكم القيمة ، فالأول يدل على واقعة وجودية كما نقول هذا الشئ حلو أو مر ، أحمر أو أسود ، فهو وصف للواقع قد يكون صواباً إن كان مطابقاً له ، أو خطأ إن كان غير مطابق . وحين نصف شيئاً بالقيمة فمعنى ذلك أنه يحقق « شروطاً » معينة ، وأنه يؤدى « وظيفة » أكثر من مجرد الوجود . فقولنا الورد جميل حكم واقع ، وحين نختار وروداً لتقديمها هدية ، أو وضعها للزينة يكون لها قيمة تحقق شروطاً معينة وتؤدى وظيفة ، بناءً على الاختيار ، والتوجيه ، والإيثار ، والترجيح ، والاستحسان . فالقيمة خاضعة للتفكير الموجه أو التفكير البرجماتى ، كما رأينا فى خضوع الفكر للعلم التجريبى ومنهجه .

وليست أحكام القيمة ، ومنها المثل العليا الأخلاقية مستمدة من معايير سابقة ومبادئ أولية متعالية ، ولكنها أحكام عن شروط الأمور التى نجربها ونتائجها وكيف يجب أن تنظم تكوين الرغبات والعواطف والمتع .

وإذا طبقنا المنهج التجريبى على أمور الدين والأخلاق والاجتماع وهى الأمور التى تمتاز بالقيمة حدث لها تغيير عظيم أشبه بما حدث فى العلوم الطبيعية ؛ ولأمر ما نثق فى المنهج التجريبى عند ما نطبقه على الأمور الطبيعية ولا نثق فيه عندتطبيقه على الإنسانيات ؟ فإن قيل إننا لو فعلنا ذلك لتخلينا عن كل سلطة منظمة وعن جميع المقاييس والمعايير ، أجاب ديوى بأن المنهج التجريبى لا يعنى التخبط والسلوك الأعمى بل التوجيه بالمعرفة والذكاء .

صفوة القول : اليقين الذى ظن قدماء الفلاسفة بلوغه بطريقتهم التى فصلت بين عالم الحق وعالم الواقع أمر لا يمكن ، وإنما الذى فى ميسور الإنسان هو أن يبلغ الأمن ، عن طريق السير فى تيار العلم والصناعات التى تحسن أحوال العمران .

منتخبات من هذا الكتاب

١ — نظرية المعرفة قديماً (ص٤٧ — ٤٨ من الترجمة العربية) .

لقد صيغت نظرية المعرفة على مثال ماهو مفروض أن يتم فى عملية الإبصار . فالشىء الخارجى يعكس الضوء على العين فيرى . وهذا الفعل يضيف اختلافاً إلى العين وإلى الشخص صاحب جهاز البصر ، ولكنه لا يضيف شيئاً مما للشىء المبصَر . فالشىء الواقعى هو الشىء الذى يتربع ثابتاً على عرش

العزلة كأنه ملك ينظر العقل إليه محدقاً فيه . والنتيجة التى لامناص منها هى القول بنظرية المعاينة فى المعرفة أو نظرية المتفرج . حقاً هناك نظريات تذهب إلى تدخل النشاط العقلى ، ولكنها احتفظت بالمقدمة السابقة مما ترتب عليه استحالة معرفة الحقيقة الواقعة . فمادام العقل يتدخل فنحن إنما نعرف طبقاً لهذه النظريات شبها معدلا للشيء الواقع ، أوظاهراً مّا . ومن العسير أن نجد تأييداً أكمل مما تقدمه لنا هذه النتيجة عن السيطرة الشديدة للاعتقاد بأن موضوع المعرفة عن حقيقة ثابتة وكاملة فى ذاتها ، منعزلة عن فعل البحث الذى يشتمل على أى عنصر يحدث التغير .

٢ — الفنون الحرة والفنون التكنولوجية (ص ٩٨ — ٩٩)

مر على الإنسان حين من الدهر كان يعد « الفن والعلم » فيما يفترض اصطلاحين متكافئين ، ولاتزال بقية من ذكرى تلك الفترة فى تنظيم الجامعات حين يقال : « كلية الفنون والعلوم » . وكان هناك تمييز بين الفنون الميكانيكية والفنون الحرة . كان ذلك التمييز فى بعض جوانبه بين الفنون الصناعية والفنون الاجتماعية ، بين ما يتعلق بالأشياء وبين ما يتصل مباشرة بالأشخاص ، فالنحو والخطابة مثلا — عندما نبحث فى الكلام وتفسير الأدب وفن الإقناع — كانا أعلى من الحدادة والنجارة . فالفنون الميكانيكية كانت تتعلق بأمور هى مجرد وسائل ، والفنون الحرة كانت تتصل بأمور هى غايات ، لها قيمة غائية وذاتية ثم عملت الأسباب الاجتماعية على ازدياد وضوح ذلك التمييز . فعلم الحيل يبحث فى الفنون الميكانيكية ، وهذه أدنى رتبة فى السلم الاجتماعى . والمدرسة التى تعلم فيها هذه الفنون هى المدرسة العملية ، أى التلمذة على الذين برعوا فى الحرفة وأسرارها . والتلاميذ أو الصبيان كانوا يتعلمون بأن يعملوا ، وكان العمل تكراراً روتينيا وتقليداً لأفعال الغير حتى يحصل على المهارة الشخصية . أما الفنون الحرة فكان يدرسها أولئك الذين عليهم أن يشغلوا بعض مناصب السلطان ، التى تُشْغَل بعد شيء من الدربة على الحكم الاجتماعى . وكان مثل هؤلاء الأشخاص يملكون الوسائل المادية التى تكفل لهم الفراغ ، ويشغلون المناصب التى تحتاج إلى شرف خاص وصدارة معينة ، وفضلا عن ذلك فلم يكونوا يتعلمون بالتكرار الميكانيكى وممارسة الأبدان فى استعمال الأدوات والآلات ، بل يتعلمون « فكريا » بطريق ضرب من الدراسة يتطلب استخدام العقل لا الجسم .

٣ — الغرض من العلم : (ص ١٢٧)

غرض العلم الكشف عن العلاقات الثابتة بين التغيرات بدلا من تعريف الأشياء اللامتغيرة المتعالية على إمكان التبدل . فموقف العلم يهتم بميكانيزم الأحداث بدلا من اهتمامه بالعلل الغائية . والمعرفة حين تبحث فيما هو قريب لا ما هو نهائى إنما تبحث فى العالم الذى نعيش فيه ، العالم الذى نجربه ، بدلا من محاولة الهرب من طريق العقل إلى عالم أعلى : والمعرفة التجريبية ضرب من العمل ، وهذا الضرب ككل عمل يقع فى زمان معين وفى مكان معين وفى ظروف خاصة مرتبطة بمشكلة محدودة .

٤ — البحث العلمى (ص ١٢٨)

البحث العلمى يبدأ دائماً من الأشياء الموجودة فى البيئة مما نجربه فى حياتنا اليومية ، من الأشياء التى نراها ونتناولها بأيدينا ونستعملها ونتمتع بها ونعانيها . وهذا هو عالم الكيفيات العادى . ولكن بدلا من قبول كيفيات وقيم هذا العالم باعتبار أنها تقدم موضوعات المعرفة مع خضوعها لترتيب منطقى معين ، ينظر البحث التجريبى إليها باعتبار أنها تقدم حافزاً للفكر .

إنها مواد المشكلات لا حلولها ، وعلينا أن نسعى إلى أن تكون موضوعات المعرفة . وأول خطوة فى المعرفة أن نحدد المشكلات التى تحتاج إلى حل ، وتتحقق هذه الخطوة بتعديل الكيفيات الواضحة المعطاة ، فهذه الكيفيات آثار وأمور علينا أن نفهمها ، ويتم فهمها بصيغة تولدها . إن البحث عن العلل الفاعلة بدلا من العلل الغائية ، عن العلاقات الخارجية بدلا من الباطنة ، هو الذى يستهدفه العلم

٥ — اليقين والأمن : (ص ٢٧١ — ٢٧٣)

إن شروط الطبيعة وعملياتها كما تُوَلِّد اللايقين ومخاطره تقدم لنا كذلك الأمن من المخاطر وسبل التأمين بإزائها . فالطبيعة تتميز بأنها مزيج دائم من المزعزع والثابت ، وهذا هو الذى يعطى الوجود طعماً مراً ؛ إذ لو كان الوجود إما واجباً أو ممكناً ، فلن يكون فى الحياة ملهاة أو مأساة ، ولا تكون ثمة حاجة إلى إرادة العيش . إن أهمية الأخلاق والسياسة ، والفنون والصناعات ، والدين ، والعلم كمنهج وكشف ، كل ذلك يستمد أصله ومعناه من وحدة المستقر وغير المستقر ، الثابت والمزعزع فى الطبيعة . ولن نجد خارج الوحدة شيئاً يسمى « الأهداف » ، سواء أكانت نهاية أشواط أم كانت أغراضاً ننصبها أمام أعيننا . فليس ثمة كون واحد صمد نتجه إليه دون أن يسمح بأى تغير ، أو تسير نحوه الأحداث المقدورة . وليس ثمة تمام عمل ما لم يكن ثمة مخاطرة بفشل ، ولا فشل حيث لا يوجد أمل فى إمكان التحقيق .

٦ — دعامة اليقين فى الفلسفات القديمة (ص ٢٨٢)

رأينا منذ استهلال هذه المناقشة أن عدم الأمن يولد البحث عن اليقين . وهناك عواقب تنشأ من كل تجربة وهى منبع اهتمامنا بما هو موجود فى الحاضر . رأينا أن غياب فنون التنظيم جنح بالبحث عن الأمن إلى ضروب غريبة من العمل كالطقوس والعبادات وتعلق الفكر بالكشف عن النذر بدلا من الدلائل على ما سيحدث . ثم تميز تدريجاً عالمان : أحدهما أعلى يشتمل على القوى التى تحدد مصير الإنسان فى جميع الأمور الهامة ، وهذا هو العالم الذى اهتم به الدين . أما الآخر فيشتمل على الأمور الدارجة التى يعتمد فيها الإنسان على مهارته الخاصة وما له من بصيرة يملكها بالفعل . وورثت الفلسفة هذا التقسيم .. ثم التمست الطبقة المفكرة دعامة اليقين وضمانه كما يقدمه الدين فى البرهنة الفكرية على حقيقة أمور العالم المثالى .

* * *

ومع ذلك فقد زعزعت نتائج العلم الحديث أساس ذلك النظام الذى كان يبدو وطيداً . وأدت هذه النتائج فى ذاتها إلى أكثر من ذلك فى الاهتمامات وأنواع النشاط الجديد التى ولدتها إلى الفصل بين ما يهتم به الإنسان فى هذه الحياة الدنيا وبين الإيمان بالحقيقة المطلقة التى كانت تنظم حياته الحاضرة فى تحديدها لمصيره الأقصى الأزلى . وتعد مشكلة إعادة التوحيد والتعاون بين معتقدات الإنسان عن العالم الذى يعيش فيه ، وبين معتقداته عن القيم والأغراض التى يجب أن توجه سلوكه أعمق مشكلة فى الحياة الحديثة .

٧ — أحكام القيمة (ص ٢٩٣)

عندما تعجز نظريات القيم عن تقديم المعونة الفكرية لصياغة الأفكار والاعتقادات عن القيم المناسبة لتوجيه السلوك ، فينبغى أن يملأ هذا الفراغ بوسائل أخرى . فإذا غاب المنهج البصير فهناك التحيز ، وضغط الظروف المباشرة ، والمصلحة الشخصية ومصلحة الطبقة والعرف والمؤسسات التى نشأت عَرَضا فى التاريخ الماضى ، وهذه كلها ليست غائية ، وهى تميل إلى أن تتخذ مكان العقل البصير . وهكذا ينتهى بنا الأمر إلى قضيتنا الأساسية : أحكام القيمة هى أحكام عن

شروط الأشياء المحبوبة ونتائجها ، أحكام عما يجب أن ينظم تكوين رغباتنا ومحبوباتنا ومتعنا ، لأن أى شىء يقرر مصير تكوينها سيحدد الطريق الأساسى لسلوكنا الشخصى والاجتماعى .

٨ — تطبيق المنهج العلمى على الإنسانيات (٣٠١)

هذا هو المعنى العام لنقل المنهج التجريبى من الميدان الفنى للخبرة الطبيعية إلى الميدان الأوسع للحياة الإنسانية . فنحن نثق بهذا المنهج فى تكوين معتقداتنا عن الأمور التى ليست لها صلة مباشرة بالحياة الإنسانية ولكننا لانثق به فى الأمور الأخلاقية والسياسية والاقتصادية . وفى الفنون الجميلة توجد دلائل كثيرة على حدوث تغير . وقد كان مثل هذا التغير فى الماضى نذيراً ومبشراً بتغيرات فى الاتجاهات الإنسانية الأخرى ، ولكن بوجه عام تعد فكرة اصطناع المنهج التجريبى فى الشئون الاجتماعية وفى الأمور التى يظن أنها أدوم قيمة وأعلاها عند معظم الناس نزولا عن جميع المعايير وكل سلطة مُنَظِّمة . لكن من جهة المبدأ لايعنى المنهج التجريبى الفعل العشوائى الذى يجرى بلا هدف ، بل يدل على التوجيه بالأفكار والمعرفة .

٩ — الثورة الديوية (ص ٣١٨ — ٣١٩)

كان المركز القديم هو الذهن العارف عن طريق جهاز من القوى كاملة فى ذاتها إنما تفعل فعلها فى مادة سابقة خارجية كاملة كذلك فى نفسها . أما المركز الجديد فهو التفاعلات غير المحدودة التى تقع داخل مجرى طبيعة غير ثابتة وكاملة بل قادرة على التوجيه نحو نتائج جديدة ومختلفة بتوسط عمليات مقصودة . وليست الذات ولا العالم ، وليس النفس ولا الطبيعة هو المركز ، كما أنه ليست الأرض أو الشمس هى المركز المطلق لكونٍ وحيد ، والصورة الضرورية التى نرجع إليها . وإنما هناك كلٌّ متحرك لأجزاء متفاعلة يبرز فيه مركز حيثما يظهر مجهود لتغيير هذه الأجزاء نحو وجهة خاصة .

وللانقلاب أوجه عدة متداخلة فيما بينها ، ولا يمكن القول إن وجهاً منها أهم من غيره ، لكن تغيراً من هذه التغيرات يبرز متميزاً تميزاً عجيباً . فلم يعد الذهن متفرجاً ينظر إلى العالم من خارج ويجد سعادته القصوى فى بهجة التأمل فى ذاته ، وإنما الذهن موجود داخل العالم كجزء من عمليته الجارية على الدوام . وهو يتميز كذهن بأنه حيثما وجد وقع التغير بطريقة « موجهة » ، وبحيث تتجه حركته فى طريق محدود واحد ، أى من المشكوك فيه والمبهم إلى الواضح وإلى المحلول المستقر . فالانتقال التاريخى الذى تتبعنا سجله كان من المعرفة كنظر من خارج إلى المعرفة كشريك فعّال فى مأساة عالم متحرك على الدوام .

١٠ — العلم والفلسفة (ص ٣٣٧ — ٣٤٠)

يجدر بنا أن نذكر كلمة أخيرة عن الفلسفة ، فهى كالدين قد دخلت فى نزاع مع العلوم الطبيعية ، أو على الأقل ازداد افتراق طريقها عن طريق العلوم منذ القرن السابع عشر . وأعظم سبب لهذا الشقاق أن الفلسفة زعمت أن وظيفتها معرفة الحقيقة ، مما جعلها منافسة للعلوم لا مكملة لها . واندفعت الفلسفة تطلب ضرباً من المعرفة أعلى من المعرفة التى تمدنا بها العلوم . وترتب على ذلك على الأقل فى صور الفلسفة الأكثر نظاماً ، أنها اضطرت إلى مراجعة نتائج العلم لتثبت أنها لا تعنى ما تقول ، أو أنها على أى حال تنطبق على عالم من المظاهر بدلا من انطباقها على تلك الحقيقة العليا التى تتجه إليها الفلسفة .

وفى ظل هذه الظروف لن تجد هذ الفلسفة أنها تعارض العلم ، وإنما هى همزة الوصل ، أو ضابط الاتصال كما يقال اليوم ، بين نتائج العلم وضروب

الأفعال الاجتماعية والشخصية التى بها تتحقق الممكنات ونشقى فى سبيلها . أما الدين الذى ينقطع إلى الإلهام ويمجد الإحساس بالإمكانيات المثالية المتعالية عن الواقع فسيجد نفسه وقد وقفه أى كشف علمى عند حده . لأن كل كشف جديد سيفتح باباً جديداً . ستجد مثل هذه الفلسفة أمامها ميداناً واسعاً من النقد . ولكن ذهنها الناقد سينصب على سيطرة التحزب ، والمصلحة الضيقة ، والعرف المألوف ، والسلطة الصادرة عن مؤسسات منعزلة عن الأهداف الإنسانية التى تخدمها . وهذه الوظيفة السلبية للفلسفة ليست سوء مراقبة عمل الخيال المبدع حين يهدينا إلى الإمكانيات الجديدة التى تكشف المعرفة بالواقع عنها ، ويلقى بمناهج جديدة لتحقيقها فى مجال الخبرة اليومية للبشر .